كيف استطاعت بعض الدول ترشيد الاستهلاك في ظلّ الأزمات؟

بشكل عام يمكن القول إنه في ظل الأزمات العالمية، تتأثر أنماط الاستهلاك لدى الأفراد والمجتمعات بشكل كبير.

أ. عبد الرحمن أحمد الشريف
مدرس مساعد بكلية الدراسات التجارية وإدارة الأعمال
الجامعة المصرية الأهلية للتعلم الإلكتروني

تشير أنماط الاستهلاك إلى الطريقة التي يستخدم بها الأفراد والأسر والمجتمعات مواردهم وتخصيصها لتلبية رغباتهم واحتياجاتهم. ويمكن أن يشمل ذلك مجموعة واسعة من السلع والخدمات، مثل المأكل والملبس والمسكن والنقل والترفيه. كما يمكن أن تختلف أنماط الاستهلاك بشكل كبير بناءً على مجموعة متنوعة من العوامل مثل التقدم التكنولوجي، والتغيرات الاقتصادية، والأعراف الاجتماعية والثقافية بما في ذلك الدخل والعمر والتعليم، ومع مرور الوقت تتأثر أنماط الاستهلاك بشكل كبير، فعلى سبيل المثال أثّر ظهور التجارة الإلكترونية بشكل كبير على عملية التسوق للمستهلكين وشرائهم للسلع والخدمات .

وتعد دراسة أنماط الاستهلاك أمرًا ضروريًّا بالنسبة للأفراد والشركات وصانعي السياسات والأكاديميين؛ لأنها يمكن أن تساعد الأفراد على فهم أنماط الاستهلاك الخاصة بهم، وكيفية إدارة مواردهم المالية بشكل أفضل، واتخاذ قرارات رشيدة بشأن مشترياتهم، وبالنسبة للشركات فإنها توفر رؤى قيِّمة حول سلوك المستهلك وتفضيلاته واتجاهاته، كما يمكن أن تساعد الشركة على تطوير استراتيجيات تسويقية فعالة وتصميم منتجاتها وخدماتها لتلبية احتياجات ورغبات عملائها، ويمكن لواضعي السياسات استخدام المعرفة بأنماط الاستهلاك لاتخاذ قرارات رشيدة حول قضايا مثل الضرائب والدعم وتنظيم الأسواق والحد من الواردات وزيادة الصادرات، كما يمكن للأكاديميين استخدام أبحاث أنماط الاستهلاك لتطوير نظريات ونماذج سلوك المستهلك، والمساهمة في فهم أوسع للاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية ووضع توصيات .

ويمكن تعريف أنماط الاستهلاك على أنها العادات والسلوكيات المحددة التي يظهرها الأفراد والمجتمعات عندما يتعلق الأمر بالسلع والخدمات، ويشمل ذلك أنواع المنتجات والخدمات التي يتم استهلاكها، بالإضافة إلى التكرار والكمية والطريقة التي يتم استهلاكها بها.

العوامل الرئيسة المؤثرة على أنماط الاستهلاك:

1. **الدخل:** هو أحد أهم العوامل التي تؤثر على أنماط الاستهلاك، ويميل الأفراد والأسر ذات الدخل المرتفع إلى الحصول على دخل أكثر قابلية للإنفاق، وبالتالي، من المرجح أن يستهلكوا مجموعة واسعة من المنتجات والخدمات.
2. **النوع:** يمكن أن يكون للنوع تأثير على أنماط الاستهلاك. على سبيل المثال، تميل النساء إلى الإنفاق على الملابس ومنتجات العناية الشخصية أكثر من الرجال.
3. **العمر**: يمكن أن يؤثر العمر أيضًا على أنماط الاستهلاك. على سبيل المثال، يميل المستهلكون الأصغر سنًا إلى أن يكونوا أكثر انفتاحًا على شراء المنتجات والخدمات الجديدة، بينما المستهلكون الأكبر سنًا فمعظم مشترياتهم تكون للمنتجات الضرورية فقط.
4. **التعليم**: يمكن أن يؤثر التعليم أيضًا على أنماط الاستهلاك، حيث يميل الأفراد الأكثر تعليمًا إلى أن يكونوا أكثر وعيًا بتأثير عاداتهم الاستهلاكية على المجتمع والبيئة.
5. **الثقافة:** العوامل الثقافية مثل القيم والمعتقدات والعادات، يمكن أن تؤثر أيضًا على أنماط الاستهلاك. على سبيل المثال، قد تفضل بعض الثقافات الادخار والاقتصاد، بينما قد يركز البعض الآخر بشكل أكبر على الاستهلاك.
6. **التكنولوجيا:** أثر التطور التكنولوجي بشكل كبير على أنماط الاستهلاك؛ مما جعل الوصول إلى السلع والخدمات أسهل وأكثر ملاءمة للمستهلكين. على سبيل المثال، أتاح التسوق عبر الإنترنت للأشخاص شراء المنتجات من أي مكان في العالم، كما سهلت تطبيقات الأجهزة المحمولة طلب الطعام وخدمات النقل.
7. **التسويق والإعلانات**: يمكن أن يكون للحملات التسويقية والإعلانية تأثير كبير على أنماط الاستهلاك من خلال التأثير على تصورات الناس عن المنتجات والخدمات، ويمكن أن تشجع حملات التسويق الفعالة الأشخاص على تجربة منتجات جديدة أو زيادة استهلاكهم للمنتجات الحالية.
8. **العوامل الاجتماعية والبيئية:** يمكن للعوامل الاجتماعية والبيئية، مثل الأعراف الاجتماعية والثقافية، أن تؤثر أيضًا على أنماط الاستهلاك.

وتلك العوامل يمكن أن تؤثر تأثيرًا مباشرًا في أنماط الاستهلاك، ومن خلال فهم هذه العوامل، يمكن للأفراد والشركات اتخاذ قرارات رشيدة بشأن عاداتهم وممارساتهم الاستهلاكية؛ مما يسهم في الرقي بمستوى جودة الحياة .

وبدراسة العوامل التي تؤثر على أنماط الاستهلاك نجد أن هناك اتجاهات حديثة أثرت على أنماط الاستهلاك بمرور الوقت؛ بسبب العوامل المختلفة مثل التقدم التكنولوجي، والتغير الديموغرافي والمخاوف البيئية. وتشمل بعض اتجاهات أنماط الاستهلاك الحالية ما يلي :

1. **الاستهلاك المستدام**: هناك اتجاه متزايد نحو الاستهلاك المستدام، حيث أصبح المستهلكون أكثر وعيًا بالتأثير البيئي والاجتماعي لعاداتهم الاستهلاكية ويفضلون المنتجات والخدمات الصديقة للبيئة.
2. **الاستهلاك الرقمي**: مع ظهور التكنولوجيا الرقمية، كان هناك تحول نحو أنماط الاستهلاك الرقمي مثل التسوق عبر الإنترنت وخدمات البث.
3. **الرعاية الصحية** : هناك تركيز متزايد على الرعاية الصحية، ويختار المستهلكون بشكل متزايد المنتجات والخدمات التي تعزز الصحة والرفاهية، مثل الأطعمة العضوية، والمنتجات المتعلقة باللياقة البدنية.
4. **الاستهلاك التعاوني:** أصبح الاستهلاك التعاوني، أو الاقتصاد التشاركي أكثر شيوعًا أيضًا، حيث يشارك المستهلكون الموارد مثل السيارات والمنازل والسلع والخدمات الأخرى.

مما سبق يتضح أن أنماط الاستهلاك تتأثر باختلاف المكان والزمان، كما تتغير حسب الحالة الاقتصادية والاجتماعية لكل دولة من دول العالم، فنجد أن استهلاك كل دول العالم يتأثر تأثرًا واضحًا بالأزمات العالمية، حيث إن لها تأثيرًا كبيرًا على أنماط الاستهلاك، والتي يمكن أن تؤثر على أنماط استهلاكهم بعدة طرق يمكن حصرها فيما يلي:

- **انخفاض الإنفاق**: قد يخفض الأفراد من إنفاقهم خلال الأزمة، ويركزون على العناصر الأساسية مثل الغذاء والسكن والرعاية الصحية.
- **التغييرات في تفضيلات المنتج**: قد يحول المستهلكون تفضيلاتهم نحو المنتجات والخدمات التي يُنظر إليها على أنها ضرورية أو توفر قيمة أكبر مقابل المال.
- **زيادة الطلب على منتجات بعينها**: يمكن أن تؤدي الأزمات إلى زيادة الطلب على منتجات معينة، مثل أدوات العناية الشخصية أثناء الجائحة، أو إمدادات الطوارئ أثناء الكوارث الطبيعية.
- **التغييرات في سلوك التسوق**: قد يغير المستهلكون سلوك التسوق أثناء الأزمات، مثل الشراء بالجملة أو التسوق عبر الإنترنت بدلًا من التسوق في المتجر.
- **التحول في الولاء للعلامة التجارية**: يمكن أن تؤدي الأزمات إلى عزوف المستهلكين عن بعض العلامات التجارية التي تعودوا شراءها، فقد يتحولون إلى بدائل أرخص أو متاحة بسهولة أكبر.

بشكل عام، يمكن أن تكون أنماط الاستهلاك أثناء الأزمة غير متوقعة، ويمكن أن تختلف بناءً على طبيعة الأزمة وشدتها، فضلًا عن العوامل الخارجية الأخرى مثل السياسات الحكومية والتأثير الإعلامي في الشعوب.

وتعد السياسات الحكومية التي تهدف إلى ترشيد الاستهلاك العام من بين الأدوات المهمة التي تستخدمها الحكومات لتحسين الاستدامة البيئية، وتعزيز التوزيع العادل للثروة والموارد. وتتضمن هذه السياسات عددًا من الإجراءات المختلفة، مثل:

- فرض ضرائب على المواد الاستهلاكية الضارة بالبيئة، مثل الكربون والنفط والأسمدة والمبيدات الحشرية.
- إقرار قوانين ومعايير صارمة للحد من استخدام المواد البلاستيكية الأحادية الاستخدام، والمنتجات الكيميائية الضارة بالصحة العامة.

- دعم الطاقات المتجددة، وتحفيز الاستثمار في تطوير التكنولوجيا النظيفة.
- تشجيع الابتكار والتكنولوجيا الخضراء في الصناعات المختلفة.
- توعية الجمهور بأهمية ترشيد الاستهلاك، وتحفيز التغيير في السلوكيات الاستهلاكية.

لذلك يجب أن تتنوع السياسات المتبعة من قِبل الدول بحسب الوضع الاقتصادي والاجتماعي والبيئي الخاص بها، كما يجب أن تكون شاملة ومتكاملة لتحقيق أقصى قدر من الفوائد في ترشيد الاستهلاك العام. وإلى جانب السياسات التي تهدف إلى ترشيد الاستهلاك العام، هناك بعض المبادرات التي تهدف إلى تشجيع الأفراد على تبني نمط حياة مستدام وتقليل استهلاكهم الزائد. ومن هذه المبادرات:

- التوعية والتثقيف: يمكن للحكومات والمنظمات المختلفة توعية المجتمع بأهمية الحفاظ على الموارد وتقليل الاستهلاك الزائد للمواد الاستهلاكية، ويتم ذلك من خلال حملات إعلامية وورش عمل وتدريبات وندوات.
- تشجيع الإنتاج المستدام: يمكن للحكومات تشجيع الشركات على إنتاج منتجات صديقة للبيئة ومستدامة، وتقديم حوافز للشركات التي تلتزم بمعايير الإنتاج المستدام.
- تشجيع الاستخدام المشترك: يمكن للحكومات تشجيع الأفراد على استخدام المنتجات المشتركة بدلًا من الاستهلاك الفردي، مثل وسائل النقل العامة.
- فرض الضرائب البيئية: يمكن للحكومات فرض الضرائب البيئية على المنتجات التي تلوث البيئة وتستنزف الموارد الطبيعية، وذلك لتشجيع الشركات والأفراد على تبني نمط استهلاك مستدام.
- توفير المرافق العامة المستدامة: يمكن للحكومات توفير المرافق العامة المستدامة، مثل نظم الطاقة المتجددة ومعالجة مياه الصرف الصحي، وذلك لتحفيز الأفراد على تبني أسلوب حياة مستدام وتقليل استهلاكهم الزائد.

كما يمكن عرض بعض التجارب الدولية في ترشيد الاستهلاك من أهمها ما يلي :

- برنامج "الإثنين الأخضر" في جمهورية كوريا الجنوبية : يهدف هذا البرنامج إلى تحسين جودة الهواء وترشيد استهلاك الطاقة، حيث يقوم المواطنون بإطفاء الأنوار وفصل الأجهزة الإلكترونية يومي الإثنين من كل أسبوع.
- ضريبة الكربون في الاتحاد الأوروبي : تهدف هذه الضريبة إلى تشجيع الشركات والمستهلكين على تخفيض انبعاثات الكربون، وبالتالي ترشيد استهلاك الطاقة والحد من التلوث.
- برنامج "حياة بلا نفايات" في اليابان : يهدف هذا البرنامج إلى تشجيع المستهلكين على إعادة استخدام المواد وتدويرها، وتحقيق توفير في استهلاك الموارد الطبيعية.
- الرقابة على الأسعار في فنزويلا : تتخذ الحكومة في فنزويلا إجراءات للحد من التضخم وترشيد استهلاك المواد الأساسية من خلال فرض رقابة على الأسعار، وتوزيع بعض السلع الأساسية مجانًا للمواطنين.
- فرنسا : اعتمدت فرنسا سياسات لترشيد استهلاك الطاقة والمياه والمواد الغذائية، وذلك عبر تقديم حوافز للأفراد والشركات لتقليل استهلاكهم للموارد الطبيعية. وتشمل هذه الحوافز مثلاً تخفيضات ضريبية للشركات التي تقلل استهلاك الطاقة والموارد، وتشجيع استخدام السيارات الكهربائية.
- الولايات المتحدة : اعتمدت الولايات المتحدة إجراءات لتحفيز المستهلكين على ترشيد استهلاكهم، وذلك عبر تقديم تخفيضات ضريبية للأفراد والشركات التي تستخدم تقنيات توفير الطاقة والموارد، وإطلاق حملات توعية بالتوفير والاستدامة والحد من الإهدار.
- ألمانيا : تعد ألمانيا من الدول الرائدة في مجال ترشيد الاستهلاك والاستدامة البيئية. وقد اتخذت الحكومة الألمانية عددًا من الإجراءات لتحسين استهلاك الموارد والطاقة، بما في ذلك تعزيز الطاقة المتجددة، وتشجيع الأفراد على استخدام وسائل النقل العامة بدلاً من السيارات الخاصة.

هناك العديد من المبادرات التي اتخذتها مصر لترشيد الاستهلاك وتحفيز المواطنين على الاستخدام المستدام للموارد وتحسين جودة الحياة. ومن بين هذه المبادرات:

- برنامج تحويل المنازل إلى المنازل الذكية: يهدف هذا البرنامج إلى تحسين استخدام الموارد في المنازل من خلال تطبيق التقنيات الحديثة مثل التحكم عن بُعد في الإضاءة والتدفئة والتهوية والأجهزة المنزلية الأخرى.
- تحويل السيارات إلى العمل بالغاز الطبيعي: يهدف هذا البرنامج إلى تحفيز المواطنين على تحويل سياراتهم إلى العمل بالغاز الطبيعي بدلًا من استخدام الوقود الأحفوري وبالتالي الحد من التلوث البيئي.
- تحفيز المواطنين على الاستخدام الأمثل للمياه والكهرباء: يهدف هذا البرنامج إلى توعية المواطنين حول أهمية ترشيد استخدام المياه والكهرباء في المنازل والأعمال التجارية والصناعية.
- تشجيع استخدام الطاقة المتجددة: يهدف هذا البرنامج إلى تشجيع استخدام الطاقة المتجددة مثل الطاقة الشمسية والرياح والماء بدلًا من الوقود الأحفوري، وتحسين كفاءة الاستخدام لها.
- برنامج تحويل المصانع إلى مصانع صديقة للبيئة: يهدف هذا البرنامج إلى تحفيز المصانع على تبني الممارسات الصديقة للبيئة وتحسين كفاءة استخدام الموارد والحد من التلوث البيئي.

وبشكل عام يمكن القول إنه في ظل الأزمات العالمية، تتأثر أنماط الاستهلاك لدى الأفراد والمجتمعات بشكل كبير كما تؤثر الأزمات على أنماط الاستهلاك على المستوى العالمي؛ حيث تؤدي إلى تقليل حركة التجارة العالمية، وزيادة التكلفة والأسعار. ويبحث العديد من الأفراد في هذه الحالات عن بدائل للمنتجات المستوردة، وقد يكونون مستعدين للدفع بالمزيد لشراء المنتجات المحلية. كما تؤثر الأزمات أيضًا على تغيير أنماط السياحة والسفر، ومن جانب آخر، يؤثر الاهتمام بالأزمات البيئية على أنماط الاستهلاك، حيث يبحث الكثيرون عن المنتجات البيئية والمستدامة، والتي تحافظ على الموارد الطبيعية وتقلل الآثار السلبية على البيئة.

وبناء على ذلك، فإن الأزمات العالمية تؤثر على أنماط الاستهلاك وتغيرها بشكل كبير، وعلى حسب نوعية كل أزمة تتغير معها أنماط الاستهلاك من الأفراد والمجتمعات في محاولة للتكيف معها، واتخاذ الإجراءات اللازمة لترشيد الاستهلاك وتحسين الاستدامة.